ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Shamkhi Yaber Awaid

Wasit University, College of Education for Humanities

Email: shyabir@uowasit.edu.iq

Keywords:

Society, Mamluks, Hawadith , Wafayat , Ibn al-Jazari

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 5. Aug.2026

Revised 1. Oct.2026

Accepted 7. Oct.2026

Published 25. Nov.2026

Levantine Society in the Bahri Mamluk Era through Ibn al-Jazari's (d. 738 AH / 1337 AD) Book Tarikh Ḥawadith al-Zaman wa-Anba'ihi wa-Wafayat al-Akabir wa-al-A'yan min Abna'ihi

A B S T R A C T

Ibn al-Jazari's book is regarded as one of the notable historical works that documented events and news concerning Levantine society under the rule of the Bahri Mamluks. It covers a wide spectrum of society, including political figures, religious scholars, intellectuals, men of letters, poets, and ordinary people such as merchants and farmers. Through the information recorded in its historical narratives and obituaries, the book provides valuable insight into the diversity and composition of Levantine society, as well as its customs and social practices, including celebrations, festivals, weddings, funerals, markets, and other aspects of daily life in the Levant.

© 2026 EDUJ, College of Education for Humans Sciences, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol65.Iss2.5626

المجتمع الشامي في عصر المماليك البحرية من خلال كتاب "تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه" لأبن الجزري (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)

أ.م.د. شمخي يابر عويد سايح

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص

يعد كتاب ابن الجزري من المؤلفات المهمة التي نقلت لنا أحداث وأخبار تتعلق بالمجتمع الشامي في ظل حكم المماليك البحرية، شملت جميع رجال السياسة، فضلا عن رجال الدين والمثقفين والادباء والشعراء ورجال العامة من التجار والفلاحين وغيرهم، ومن خلال ما دون من معلومات في أحداثه ووفياته تعرفنا على تنوع وتركيبة المجتمع الشامي وبعض عاداته، ومظاهره مثل الاحتفالات والاعياد والافراح والاحزان والاسواق وغيرها من المظاهر التي تخص المجتمع الشامي.

الكلمات المفتاحية: المجتمع، المماليك ، حوادث ، وفيات، أبن الجزري.

المقدمة

تحتل بلاد الشام مكانة متميزة بين الأقاليم الإسلامية، إذ إنها بعد عمليات الفتوح والتحرير في العصر الراشدي أصبحت تشكل خط الدفاع الأول في مواجهة الدولة البيزنطية، وفي العهد الأموي تحول مركز الخلافة والحكم اليها واصبحت دمشق عاصمة للدولة العربية الإسلامية، وأخذت تتقلب بها الأحوال فخضعت للعديد من الحكومات بعد ذلك حتى خضعت للأيوبيين واستقر بها الحال بعد انتهاء حكم الأيوبيين لتصبح خاضعة لدولة المماليك البحرية بعد هزيمة المغول والانتصار في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، فأصبحت بالتالي من أهم اقاليم الدولة المملوكية نظراً لموقعها الاستراتيجي ومكانتها الحضارية .

وفي ظل حكم المماليك عاش المجتمع في بلاد الشام بنوع من الاستقرار النسبي، لكن عاداته وتقاليده تأثرت بفعل المتغيرات السياسية التي حدثت، وأصبحت بنيته وتركيبته الاجتماعية تتكون من طبقات وفئات متعددة شملت رجال السياسة والمثقفين، من رجال الدين والادباء والشعراء ورجال العامة من التجار وارباب الحرف والفلاحين وغيرهم، ومع ما يحمله المجتمع في بلاد الشام من تنوع في مراتبه، وتركيبة طبقاته، شهد ازدهارا ثقافياً وعلمياً، ونظراً لأهمية الدراسات الاجتماعية، كونها تساعد على أولاً فهم طبيعة المجتمع، وثانياً التعرف على أحواله، جاءت دراستنا بعنوان "**المجتمع الشامي في عصر المماليك البحرية من خلال كتاب تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه لأبن الجزري (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)**" والذي يعرف أيضاً بعنوان (تاريخ أبن الجزري) .

وتأتي أهمية هذا الكتاب الذي يعد من مصنفات التاريخ العام المهمة، كونه يحمل كمية من المعلومات التاريخية ذات القيمة العلمية لبقعة جغرافية شكلت في تاريخها جزء لا يتجزأ عن التاريخ الإسلامي، الذي مر بعصور مختلفة، فضلاً عن ذلك فإن المؤرخ كان معاصر للأحداث والمتوفين في المجتمع الشامي الذين ترجم لهم، فسجل في مصنفه ما شاهده وعرفه عن قرب، فهو قد عاصر الاخبار ولم يكن ناقلا لها، وهذه المعلومات التي سجلها المؤرخ في أحداثه ووفياته، اعطتنا صورة عن واقع المجتمع في بلاد الشام، ومع أن الكتاب قد فقدت بعض المعلومات منه، وقد وضح محقق الكتاب ذلك في مقدمة التحقيق التي قدمها لنا في جزئيه الأول والثاني، فإن كمية ما يحمله من معلومات عن المجتمع الشامي كانت تفي بغرض الدراسة .

واشكالية الدراسة تتمحور حوله الأسئلة الآتية: ماهي أهمية وقيمة المعلومات التي قدمها المؤرخ في كتابه المذكور اعلاه عن واقع المجتمع في بلاد الشام، خلال فترة حكم المماليك البحرية ؟ وهل ما سجله في مصنفه من معلومات جاءت عن طريق ما استند اليه من مشاهدات، ومعطيات مهمة و واقعية ؟ .

أما فرضية الدراسة فمفادها أن ما سجله المؤرخ ابن الجزري من معلومات وأخبار تاريخية عن أحوال بلاد الشام، يمكن أن تعكس لنا بالتالي حقيقة المجتمع الشامي وتساعدنا على فهم عاداته وطبيعة حياة الناس وما يمر به هذا المجتمع من أفراح وأحزان، ونقف ايضاً على تقسيماته وأحواله الاقتصادية وعلى بعض مجريات حياة الناس اليومية، في ظل حكم المماليك البحرية، وهذا ما ستوضحه الدراسة .

ثم أن الدراسة تم تقسيمها إلى مبحثين مهمين تضمن المبحث الأول تركيبة المجتمع الشامي خلال مدة حكم المماليك البحرية، في حين تحدث المبحث الثاني عن المظاهر العامة في المجتمع الشامي، وفي كل ذلك حاولنا تتبع ما قدمه المؤرخ ابن الجزري في مصنفه المذكور من معلومات معتمدين في الكتابة على المنهج الوصفي والتحليلي أحياناً من أجل الحصول على النتائج .

المبحث الأول

تركيبة المجتمع الشامي من خلال كتاب ابن الجزري

اولاً: فئة الأمراء وذوي الوظائف العليا من المماليك :

وهم المماليك من الأمراء الذين يأتي في مقدمتهم نائب السلطنة في البلاد الشامية، ولم تكن النيابة في بلاد الشام نيابة واحدة بل هناك عدة نيابات للأمراء المماليك يتم تقسيمهم وتوليتهم منصب النائب من قبل السلطان المملوكي منها نائب دمشق ونائب حلب ونائب صفد ونائب طرابلس ونائب غزة وحماه(المقريزي, ١٩٩٧,ج٣,ص١٢٠) ، ويطلق القلقشندي(ت٨٢١هـ/١٤٢٨م) عليها النيابات العظام

(القلقشندي,١٩٨٧,ج١٢,ص١٦٧) ونوابها يتميزون برتب عسكرية عالية وهي مرتبة أمير مائة (يخلف, ٢٠١٨,ص٢٠)، وهؤلاء النواب يتمتعون بسلطة واسعة يتم تخويلهم إياها من قبل السلطان المملوكي، وهناك نيابات اصغر تتبع النيابات العظام ويصف القلقشندي طريقة تولي النواب بقوله: "فأما النيابات الصغار التي في أعمال النيابات العظام فما كانت نيابته إمرة عشرة فأكثر يولي فيه النواب وربما ولي فيه السلطان وما كانت نيابته إمرة طبل خاناه فأكثر يولي فيه السلطان وربما ولى فيه النواب وما كانت نيابته تقدمة ألف فولايته مختصة بالسلطان دون النواب" (القلقشندي,١٩٨٧,ج١٢,ص٤)، يتبعهم باقي كبار الموظفين في الدولة ويشكلون الطبقة الأولى في المجتمع الشامي .

ويكشف لنا ابن الجزري الذي تميز بعقلية علمية وتاريخية في التدوين (عويد, ٢٠٢٥,ص١٩٤) من خلال تراجم وفياته أن المماليك كانوا يحضون بمكانه رفيعة وحضور واسع في البلاد الشامية، فحين يتناول المؤلف المتوفين منهم من ذوي الصلة أو الوظائف الكبرى التي كانوا يشغلونها فإنه يشير إلى مكانتهم وعظمتهم، وما يتمتعون به من جاه أو نفوذ في البلاد، وهذا أن دل على شيء فإنه يدل على قوتهم وسطوتهم في البلاد وانهم يشكلون الطبقة الأولى في المجتمع الشامي، ولهم رمزية اجتماعية خاصة تميزوا بها عن باقي الفئات في المجتمع، ومن خلال متابعتنا لتراجم وفياتهم عند ابن الجزري نلحظ أنه لا يكتفي فقط بذكر الوفاة، بل يذكر وظيفتهم والقابهم ومكانتهم وما يتمتعون به من سطوة أو نفوذ تدل على وجاهتهم في الدولة، وقربهم من دوائر الحكم، ولعل أحد اسباب ذلك هو علاقة المؤرخ بالسلطة (يابر, ٢٠٢٦,ص٤٢٨)، فمثلا عندما ترجم لوفاة مقدم المماليك الظاهرية شرف الدين بن عبد الله (ت٦٨٩هـ/١٢٩٠م) اشار إلى لقبه الذي عرف به (الطواشي مختص) وهو لقب يطلق على الخصيان من الخدم (النجار, د.ت,ج٢,ص٥٧٠)، قائلا: "كان خادماً مهيباً سلطاً، وله سطوة عظيمة وهيبة قوية على المماليك، وله المنزلة العلية والحرمة الوافرة عند الملوك وكذلك عند الأمراء، قل أن يكون أمير من مماليك الظاهر والسعيد والمنصور إلا وقد ضربه الطواشي مختص أو شتمه وكان تحت حكمه، وله في قلوبهم هيبة وخوف، وكان السلطان الملك المنصور قد زاد في حرمته وأمره وأعطاه قطاع ستين فارساً، وزاد في مرتبته ومرتبة ومعلومة" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٤)، وهذا الكلام بحد ذاته يدل على مرتبة اجتماعية خاصة تتمتع بنفوذ كبير بسبب مكانتها السياسية .

والملاحظ من خلال الأخبار التي دونها ابن الجزري أن الألقاب التي تلقبوا بها لا تدل فقط على نوع السلطة التي يمتلكها أي منهم، بل على مكانته وقوته في المجتمع، ومن الألقاب التي تدل على القوة والجاه في بلاد الشام لقب الأمير الذي يدل على النفوذ والقوة، فضلا عن تحكمه في موارد الدولة التي تحت سيطرته، فمثلا عندما تولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي (ت٦٩٣هـ/١٢٩٣م)الذي يعد أحد أرباب السيوف والأقلام (الصفدي ،١٩٩٨م، ج٥، ص ١٠٠) ولاية دمشق يذكر ابن الجزري ذلك قائلا: "نزل على قاعدة من تقدمه من نواب السلطنة في الأقطاع والمرتب، وكان في كل يوم

مائتي درهم من دار الطعم، فجعلوها ثلاثمائة درهم، وزادوه على خبزه لخاصه قرية حرستا وهي من خواص حواصل القلعة، ولم تقطع لغيره، ورسموا له أن يطلق من الخزانة بقلمه مهما اختار من غير اعتراض ولا مشاورة"(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١, ص٥٢-٥٣)، ويصف أحد الباحثين امتلاك الامراء من نواب السلطنة في بلاد الشام للأقطاعات قائلا: "كان الأمراء يملكون الاقطاعات فكل من يملك نيابة الشام تضاف إلى إقطاعه بصرة واكراك والغزلانية ويشرف على أقطاع النيابة عادة استادار وناظر الديوان ومباشرون" (يخلف, ٢٠١٨,ص٢٢) وهذه ايضاً من الوظائف التي كان صاحبها يتمتع بمكانة اجتماعية وسياسية كبيرة .

وكانت لهم الكلمة الأولى ويتحكمون في موارد البلاد، وليس للناس حول ولا قوة سوى الرضا بما يقرره نائب السلطان، ومن ذلك ما ذكره أبن الجزري في أحداث سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) عن توسعة الميدان الأخضر في دمشق من قبل الأمير الشجاعي وكيفية توسيعه وتوزيعه بين الأمراء المماليك وعمل الامراء والناس فيه قائلاً:"...وكان يوماً عظيماً لأن الأمير علم الدين الشجاعي ذرعه وقسمه بالذراع، وأعطى كل أمير قطعة، وكل مقدم له ولأصحابه قطعة، وأخذ لنفسه قطعة، وعمل هو وغلمانه وتقدمته فلما رأوه الأمراء والناس ولم يجسر أحد أن يتخلف من العمل وأهل الأسواق يساعدوهم وعوام البلد، لأن الشجاعي كان مهيباً سلطاً جباراً، ففرغ العمل في يومين"(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص٦٠)، ، وبسبب نفوذهم وسطوتهم ومكانتهم السياسية والاجتماعية في المجتمع كانوا يسيطرون على الاسواق ويتحكمون بها، ومن ذلك ما نقله ابن الجزري في حوادث سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م) عن شراء الأمير سيف الدين الأشرفي قيسارية القطن في دمشق بمرسوم سلطاني ومن بيت المال كونه كان مقرباً من السلطان، فأجبر تجار الحرير بالانتقال اليها قائلاً: "وبقي سوق الحريريين بطال كأنه بطن حمار" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ص١١٩)، .

ومن الوظائف العليا التي ذكرها ابن الجزري وظيفة شد الدواوين في بلاد الشام التي كان يتولاها أمير من امراء المماليك والتي تكشف لنا أيضاً طبيعة الموقع الاجتماعي لصاحب هذه الوظيفة، وتأثير المحسوبية والمنسوبية والرشوة في الحصول على الوظائف ومن ذلك ما ذكره لنا ابن الجزري عن كيفية تولية الأمير سنقر الأعسر شد الدواوين والأمير سيف الدين طوغان ولاية بر دمشق موضحاً سبب توليهما هذه المناصب ؛ إذ قال :"تولى الأمير شمس الدين سنقر الأعسر شد الدواوين على ما كان عليه في زمان أستاذه، وسبب عوده إلى الشد أنه توصل إلى الوزير أبن السلعوس على أنه يتزوج بأبنته فمكنه وأعاده إلى منصبه، ثم أعادوا الأمير سيف الدين طوغان إلى ولاية بر...كل واحد منهم بمبلغ وشرعوا في حمل الأموال إلى بيت المال" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص٥٣)، ، ومن خلال حديث ابن الجزري أن سنقر الأعسر تم أعادته بسبب قربه ومصاهرته للوزير أبن السلعوس والامير سيف الدين لدفعه الأموال مقابل حصوله على الوظيفة، وهذا دليل على تحكمهم وسيطرتهم على الوظائف في بلاد الشام بسبب مكانتهم السياسية التي تجعلهم فوق الجميع فهم من يمتلكون الأموال والنفوذ والسلطة .

فلا عجب مهما تنوعت الوظائف التي يتولونها فأنهم يشكلون الطبقة الأولى في بلاد الشام التي كانت تابعة لسلطان مصر، وكان لهم تأثير على واقع الحياة العامة في البلاد، فما ينطبق على مصر ينطبق على بلاد الشام، ولذلك نجد المقريزي (٨٤٥هـ/١٤٤١م) عندما يقسم طبقات المجتمع إلى سبعة أقسام يضعهم في الطليعة ثم يذكر باقي فئات المجتمع ؛ إذ يقول عنهم: "المماليك وهم أهل الدولة" (المقريزي,٢٠٠٧,ص٥٨)، وحول هذا التأثير نستعرض ما قاله بعض الباحثين: "شكل السلطان والأمراء المماليك والأجناد طبقة عسكرية حاكمة مغلقة بعيدة عن الناس حيث حدد الانتماء اليها بشروط لم تكن تتوفر ببقية طبقات المجتمع آنذاك منها: العرق واللغة والرق والتربية في الطباق والعتق والتدرج بالإمرة والمنتمي إلى هذه الطبقة كان لا بد له أن يكون مولداً خارج الأراضي المملوكية وفي المناطق التي طالما زودت المماليك بالرقيق الضروري لاستمرارية الدولة" c، ولعلنا نتوافق معهم ببعض الأمور التي طرحوها، لكننا نخالفهم بشرط الولادة خارج

اراضي الدولة المملوكية لأن المماليك تزاوجوا وأصبح لديهم أولاد ولدوا في الأراضي المملوكية، وحسب صلتهم ونسبهم يعدون من ضمن طبقة المماليك .

فالمماليك عاشوا كطبقة مختلفة عن باقي سكان بلاد الشام، ولم يكترثوا لمشاكل البلاد والمجاعات والأزمات التي كانت يمر بها ابناء المجتمع في بلاد الشام (ضاحي و مزبان, ٢٠٠٩,ص١٩)، وكانوا مشغولين دائماً بالحروب الخارجية والصراع فيما بينهم على السلطة (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٠١-١١٧)،

والملاحظ مما تقدم التداخل بين الجانب السياسي والجانب الاجتماعي فمكانتهم في المجتمع جاءت من مكانتهم السياسية، كونهم أرباب الدولة وسيطرتهم جعلتهم يتمتعون بالشهرة والنفوذ والوجاهة .

ثانياً. العلماء والمثقفين :

شكل هؤلاء في الترتيب بعد المماليك الفئة الثانية بمختلف اصنافهم من قضاة وكتاب وفقهاء وأدباء وعلماء وخطباء ومدرسين وغيرهم، وقد ترجم لهم ابن الجزري وبين منزلتهم ومكانتهم، وشغل بعض هؤلاء وظائف عديدة في الدولة فقربهم المماليك اليهم، ونالوا احترام المماليك، فنجم الدين أبي عمر المقدسي الحنبلي (٦٨٩هـ/١٢٩٠م) شغل منصب قاضي القضاة وخطيب جامع ومدرس في أكبر المدارس ونظر أوقاف الحنابلة في دمشق وكانت تربطه بالمماليك علاقة قوية وعند وفاته حظر نائب السلطنة وأمراء المماليك احتراما له، ويذكر ذلك أبن الجزري قائلاً: "وكانت جنازته حفلة جهزها نائب السلطنة وجماعة من الأمراء وأرباب الدولة والأعيان" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ص١٦)، فالقضاة وعموم العلماء كانوا يحضون بمنزلة رفيعة ومهابة ولم تقل طبقتهم ومكانتهم في المجتمع الشامي عن مكانة الطبقة الحاكمة، والناس اعتادوا على إظهار الاحترام والتقدير لهم (يخلف, ٢٠١٨,ص٢٥).

وتتضح علاقة المماليك بالقضاة والعلماء من خلال الرسالة التي ارسلها السلطان الملك الاشرف (ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م) والرسالة التي ارسلها نائب السلطنة في بلاد الشام علم الدين الشجاعي إلى قاضي القضاة شهاب الدين بن الخويي (ت٦٩٣هـ/١٢٩٤م) الذي تولى قضاء الشام والتدريس بالمدرسة العادلية والغزالية وكان من أكابر العلماء في بلاد الشام (ابن كثير, ١٩٨٦,ج١٣,ص٣٣٧) وهم يهنئونه بفتح قلعة الروم، ونقل ابن الجزري نص الرسالتين بالكامل جاء في مقدمة الرسالة التي وردت من السلطان وهو يقدم التهاني قائلاً: "أخوه خليل بن قلاون، صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القاضي الأجل، الكبير، الإمام، العالم، الفاضل، الأثير، الأكمل، الأوحد، الرئيس، الزاهد، شهاب الدين، جمال الإسلام، فخر الأنام، شرف العلماء، جلال الرؤساء، فخر الأكابر، شمس الشريعة، صفوة الملوك والسلاطين، خصه الله بأنواع التهاني وأتحفه بالمسرات، التي تعوذ بالسبع المثاني وأورد على سمعه من بشائر نصرنا وظفرنا..." (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٠٢)، ، في حين جاء في مقدمة الرسالة الثانية التي وردت من نائب السلطان وهو يقدم التهاني قائلا:

"ضاعف الله مسار الجناب العالي المولوي القاضي الأمامي، العالمي، العلامي، الزاهدي العابدي، الشهابي، ضياء الإسلام، شمس الشريعة، قاضي القضاة، وحجة الأئمة، سيد الحكام، قدوة العلماء، ولي أمير المؤمنين، ولازالت وفود البشائر اليه تترا..."(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٠٤) ، وهذا الثناء والتبجيل أن دل على شيء فإنما يدل على منزلة ومكانة العلماء والقضاة عند اصحاب السلطة وهو دليل على مكانتهم الاجتماعية في المجتمع وقوة نفوذهم.

وإذا كانت فئة أرباب الدولة مكانتهم بسبب وجودهم في قمة الهرم السياسي، فإن العلماء والفقهاء والقضاة وجميع أرباب الوظائف من المثقفين يقفون في قمة الهرم الثقافي والاجتماعي بين أبناء المجتمع، ويظهر من خلال التراجم التي دونها أبن الجزري أن هذه الفئة هي الأوفر حضوراً في تراجمه ؛ إذ نجد تكرار ألقاب :(الفقيه، والكاتب، والعالم،

والقاضي، والخطيب، والمدرس، والشيخ، والأديب) وغيرها وجميع هذه الالقاب التي وردت لا تدل على مكانة عملية فقط، بل تدل على منزلة اجتماعية بين ابناء المجتمع في بلاد الشام (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٧,ج٢,ص١٣٢)، وقد استفاد سلاطين وأمراء المماليك من مكانة العلماء والفقهاء ونفوذهم في المجتمع؛ إذ استعانوا بهم لإرضاء الناس وحاولوا من خلالهم التقرب من العامة، لذلك احترموا العلماء لأنهم من خلالهم كسبوا ود الناس (ضاحي و مزبان, ٢٠٠٩,ص٢٠)

ثالثاً: فئة العامة :

يأتي في المقدمة التجار وهذه الفئة كانت مقربة من المماليك، لكونهم كانوا يتمتعون بمستوى معاشي واجتماعي جيد في بلاد الشام، فامتلكوا الحوانيت، والخانات، والحمامات، والمزارع وغيرها (يخلف, ٢٠١٨,ص٢٧) وقد وردت تراجم بعضهم في كتاب ابن الجزري نذكر على سبيل المثال التاجر نصير الدين محمد (ت ٦٨٩هـ/١٢٩٠م) المعروف بكثرة اسفاره وقربه من الملوك والسلاطين (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١, ص٣٣)، ، وأيضاً التاجر نجم الدين عبد الجليل الجزري (ت٦٨٩هـ/١٢٩٠م) الذي كان يتاجر في الفراء وقد اثنى عليه بن الجزري قائلاً: "عنده فضيلة تامة، ومكارم أخلاق، وحسن عشرة، وكرم نفس، وداره لا تخلوا منها الضيوف لأهل بلده ولكل من يقدم إلى الجزيرة سواء يعرفه أو لم يعرفه..." (ابن الجزري, ١٩٩٨,ص٣٦)، والملاحظ أن التجار تمتعوا بمكانة في المجتمع، ونال الكثير منهم احترام الناس بسبب ثرائهم ومساعدتهم للفقراء وعطفهم عليهم (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص١٥٥-١٥٦).

أما عامة الناس البقية فهم الصناع والحرفيون واصحاب الحوانيت من الباعة، والفلاحين، فضلاً عن الفقراء، وهم يمثلون الفئة الأكبر بين أبناء المجتمع الشامي، ومع أن ابن الجزيري لم يهتم بهم كثيراً في تراجمه، لكنه أشار لهم في عموم أخباره بأسم (العوام) لأن مصنفه اساساً يتحدث عن الاكابر والاعيان، لكنه مع ذلك ترجم لبعض المشهورين منهم وذكر اعمالهم وحرفهم ومنهم مثلاً (عبد الحميد الفراء) الذي ذكره في وفيات سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) الذي كان يعمل في صناعة الفراء فامتدح صنعته قائلا: "لم يكن في دمشق من أهل صنعته في عمل الفراء القرظ من يلحق به"(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٣٩)، وفي وفيات نفس العام ذكر (معين الدين عبد الرحمن) الذي كان يعمل في صناعة السروج وآلات الجند، (ابن الجزري, ١٩٩٨,ص١٦٦) ومع أن البعض من أصحاب الصناعة والحرف اصابهم الثراء بسبب حصولهم على الأموال من حرفهم، لكن مع ذلك عاش بعض ابناء المجتمع الشامي في فاقة وجوع، بسبب الأزمات التي كانت تحدث بين فترة وأخرى والحروب التي خاضتها الدولة المملوكية، والتي أثرت على السوق وارتفاع الاسعار فتأثر لذلك الفقراء واصحاب الدخل المحدود، ومع أنهم أحياناً يحصلون على الدعم والمساعدة في أيام الكوارث، والأزمات من أمراء المماليك،(ضاحي و مزبان, ٢٠٠٩) والأغنياء من التجار وغيرهم، ومن ذلك مثلاً مساعدتهم بعد الحريق الذي أصاب سوق الفرائين في دمشق ؛ إذ وصفه ابن الجزري بالحريق العظيم قائلاً: "وقع حريق عظيم في سوق الفرائين بدمشق، كان مبدأه من دكان قطان في طريق قيسارية الفرش ودخل حمام وقلينس، وامتد إلى سوق الفرائين وإلى القيسارية الجديدة، وقيسارية المارستان، وبعض دكاكين سوق علي...وكان من أول الليل، وعجز عن طفيه، وبقيت النار تعمل إلى يوم الأحد...وقام والي البر علاء الدين المرواني هو ومماليكه وأعوانه في حفض الأسواق القريبة إلى الحريق أتم قيام وإلا كانت نهبت" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٢٦١).، ولعل هذا الوصف يبين حجم الكارثة التي تعرضت لها الاسواق التي كان يعمل بها الحرفيون والصناع واصحاب الحوانيت الأخرى، وعليه فإن أغلب سكان بلاد الشام عانوا من قسوة الحياة، وصعوبتها، فمارس فقرائهم النهب والسلب مستغلين اضطراب الأوضاع أحياناً (ضاحي و مزبان, ٢٠٠٩,ص٢٠-٢١).

أما الفلاحون فكانوا مغلوبين على أمرهم، ومهملين يعانون الفقر والفاقة، بسبب الضرائب التي كانت تفرض عليهم من قبل السلطة، فضلا عن تعرض محاصيلهم للتلف أحياناً بسبب تساقط الامطار الغزيرة مع الثلوج التي تؤدي حتى إلى

هلاك الحيوانات أو بسبب الجراد الذي يهاجم محاصيلهم في بعض الاحيان، وأحياناً قلة الأمطار التي تؤدي إلى عدم الزراعة وتوقف الانتاج الزراعي، ومن ذلك مثلاً ما حدث في بلاد الشام سنة (٦٩٢هـ/١٢٩٣م) في بعلبك من هطول غزير للأمطار؛ إذ يصف أبن الجزري ذلك قائلاً: "وأن المطر كأنه بطين كثير إلى غاية، وحتى أن الماء وصل إلى شراريف الصور، ثم أنه أنحدر بعد ذلك وأخذ في طريقه إلى كروم، كثير جداً أقتلعها بشروشها، وساق معه صخر وحجارة، وطم أكثر الطرقات، وأنهم أحصو جملة ما خرب وأتلف من بلاد بعلبك، فكان قيمته فوق مائة وخمسين ألف دينار" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٥٢)، وفي نفس العام حصل في دمشق مطر وثلج وبرد عظيم، وكذلك في سائر بلاد الشام، مما أدى إلى تلف الزروع وهلاك الناس والمواشي بسببه، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعار الفحم بسبب البرد واللحم بسبب قلة المواشي (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٥٢)، ومن المصائب التي تتعرض لها الأراضي الزراعية ويتأذى بسببها الفلاح هو قدوم الجراد ففي حوادث سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م) ذكر أبن الجزيري ذلك قائلاً: "قدم الجراد إلى غوطة دمشق وبات ليلة الخميس بأرضي ثرماء، وأمتد إلى كفر بطنا وسقبا وحمورية"(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص١٨١).

وأحيانا تتحسن حالة الفلاح ويتوفر القمح بسبب كثرة الأمطار التي تروي الأراضي الزراعية في بلاد الشام، ولعل خير دليل على ذلك ما ذكره ابن الجزري في حوادث سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٦م) حول الأمطار في دمشق وبعلبك، فضلاً عن البقاع وباقي مناطق الشام قائلاً:"في يوم الثلاثاء سادس جمادي الأولى مطرنا بدمشق بفضله ورحمته، وليلة الأربعاء، ويوم الأربعاء والخميس والجمعة، والسبت، ووصلت الأخبار من جهة حوران أن الوادي سال ودارت الطواحين وأسقوا جميع الأراضي الزراعية الصيافي، وكذلك وصلت الأخبار من ناحية بعلبك والبقاع، وجميع السواحل رويت وكان القمح قد طلع عشرة دراهم نزل إلى سعره الأول لله الحمد والمنة" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص١٨٠).

وعند توقف المطر تتوقف الزراعة ويقل الإنتاج، فيؤثر ذلك على الفلاح ومستواه المعاشي وتبدأ معانته ولا يبقى أمامه سوى التوسل بالله تعالى طالبا نزول المطر من أجل، فيصليون من أجل ذلك صلاة الاستسقاء، ومن ذلك ما حدث في عام (٦٩١هـ/١٢٢٤م)؛ إذ يذكر ابن الجزري توقف المطر وخروج الناس للاستسقاء قائلا: "واستسقى بدمشق يوم الاثنين خامس عشرين ربيع الأول، فلم يسقوا، ثم استسقي ثاني مرة يوم الأثنين ثالث ربيع الآخر فلم يسقوا، فخرج جماعة من المغاربة، وغيرهم إلى مغرة الدم بجبل قاسيون وأقاموا به ليالي وأيام، يقرون ويبكون ويدعون ويتضرعون، فما برحوا حتى رضي الله عنهم ومطروا بفضل الله ورحمته، وأسقى البلاد وأغاث العباد" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١١٦)، ونلحظ من خلال ما تقدم ذكره كمية الاهمال ومعاناة الفلاح في بلاد الشام .

وإلى جانب هذه الفئات هناك فئة أخرى مهمة منتشرة في بلاد الشام في عصر المماليك البحرية، وهم أهل الذمة، فمع أنهم كانوا جزء من السكان المحليين، لكن علاقتهم بالسلطة لم تكن علاقة طيبة دائماً، بل كانت متأرجحة بين اللين والشدة (ضاحي و مزبان, ٢٠٠٩,ص٢١)، وسبب ذلك الحروب الصليبية القائمة في بلاد الشام، ثم أن بعض علماء المسلمين ممن كانت لهم الكلمة العليا بين أبناء المجتمع، لم تكن تربطهم بهم علاقة جيدة ولذلك نجدهم يألفون مؤلفات تتعلق بالرد على معتقداتهم، ومن ذلك ما أصدره ابن تيمية في الرد على معتقد النصارى وهو كتاب "الجواب الصحيح لمن بدل كلام المسيح"(الصفدي, ٢٠٠٠,ج٧,ص١٧)، وكانوا يتهموا دائماً بأثارة الفتن في بلاد الشام، ومن ذلك ما ظهر في حادثة الحريق الكبير في دمشق سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) الذي عرضهم للاضطهاد من قبل السلطة (ناصر الدين, ١٩٩٣,ج٣,ص٤٩٣)، وبسبب قلتهم وتعرضهم للاضطهاد كانوا يضطرون أحياناً للدخول في الإسلام .

ولعل ما ذكره ابن الجزري في أخباره ووفياته من أخبارهم مع أنه قليل، لكنه يبين لنا بوضوح وضعهم الاجتماعي وأنهم كانوا محط اتهام، فمثلاً في أحداث سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) ذكر الفتنة التي حدثت في السويداء أول الأمر وكانت سببها نصراني يعمل كاتباً، أتهم بسب الرسول (صل الله عليه وآله وسلم) فقدموا عليه شكوى بذلك إلى نائب السلطنة لكنه

لم يهتم بالأمر ووصل الخبر إلى الفقهاء والقضاة، الذين بدورهم ذهبوا إلى نائب السلطان وكلموه في أمر النصراني، فأمتثل لهما وطلب منهم معاملته وفق أحكام الشرع الشريف، ولم ينتهي أمر هذه الفتنه إلا بعد دخول النصراني في الإسلام بحضور القضاة فسألهم نائب السلطنة قائلا: "هل يجوز أن يحقن دمه بعد الإسلام؟ فقالوا نعم" فسلم من القتل وأعفي عنه بسبب ذلك (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص٢٠٢-٢٠٤)، وفي أحداث سنة (٧٢٦هـ، ١٣٢٥م) ذكر ابن الجزري اتهام توما بن عبد الله النصراني، الذي أسلم ثم أرتد عن الإسلام، وبعد أن شهدوا عليه أحضروه إلى قاضي القضاة المعروف بشرف الدين المالكي، وبعد اعترافه أمامه حكم عليه بضرب عنقه وإحراقه (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص١٠٨)، ومع أن المرتد يقتل في الشريعة الإسلامية، لكن مثل هكذا حادثة تبين لنا المكانة الاجتماعية الضعيفة للنصارى في بلاد الشام، فلا خلاص لهم من التهم إلا بدخول الإسلام، سواء كانوا نصارى أو يهود ولم يتحدث أبن الجزري عن تفصيلات واضحة عنهم، وقد قسم أحد الباحثين طوائف النصارى قائلاً: "اليعاقبة والسريان والافرنج والاحباش والاقباط والموارنة والارمن والارثودوكس"(يخلف, ٢٠١٨,ص٣٠-٣١)، أما اليهود فقد كانت لهم حارات خاصة في بلاد الشام يطلق عليها في كل منطقة حارة اليهود, ويقسمون إلى ربانين وسامرة, واشتهروا بالتجارة وامتهان مهن متنوعه وكان لهم رئيس خاص يشرف عليهم (يخلف, ٢٠١٨,ص٣٢).

المبحث الثاني

مظاهر عامة في المجتمع الشامي من خلال كتاب ابن الجزري

أولاً: الاحتفالات:

من خلال متابعتنا لكتاب (تاريخ ابن الجزري) يمكن استعراض الاحتفالات التي شهدها المجتمع الشامي أيام المماليك البحرية، ومنها الاحتفال بعد التحرير والانتصار في المعارك الحربية، ومن ذلك ما شهدته الشام بعد المعارك الأخيرة مع الصليبين التي انتهت بفتح عكا من قبل السلطان (الاشرف خليل)، ففي حوادث سنة (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) ، إذ يصف ابن الجزري ذلك قائلاً: "ووقعت البطاقة في فتح عكا بدمشق يوم الجمعة سابع عشر جمادي الأول بعد صلاة الجمعة يذكروا أنهم ملكوها بالسيف عنوة، فزين البلد ودقت البشاير بالقلعة ودور الأمراء، وعمل السماعات بدمشق" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٤٦)، ومن المظاهر الخاصة بالاحتفالات هو الاحتفال بقدوم السلطان المملوكي من مصر إلى بلاد الشام، لقيادة الحملات العسكرية ضد الصليبين، حيث كانت الناس تخرج لاستقباله، ومن ذلك ما ذكره ابن الجزري في حوادث سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م) عند قدوم السلطان الأشرف خليل إلى بلاد الشام، إذ يصف ذلك قائلاً: "فلما كان بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان دخل السلطان الملك الاشرف إلى دمشق واحتفلوا أهلها لدخوله احتفالا عظيماً، وبسطوا له كما لهم عادة أن يبسطوا إذا قدم من مصر، ولم يكن لأهل دمشق عادة إذا قدم السلطان من جهة الشرق أن يبسط له شيئاً، إلا عند دخوله من مصر لا غير..." (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص١١٠).، ويعد الاحتفال بالمحمل السلطان من التقاليد الثابتة في بلاد الشام ومصر، وهو احتفال أهتم به المماليك، حيث يعم الفرح والسرور الناس في جميع أنحاء البلاد وهو يسبق خروج الحجاج ويكون بـ(دوران المحمل) ومن خلاله يتم ابلاغ الناس أن الطريق إلى الحجاز أمنة وليس هناك خوف (ضاحي و مزبان, ٢٠٠٩,ص٨٤)، ففي حوادث سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) يصف ابن الجزري طريقة الاحتفال بالمحمل قائلا:"...أخرج المحمل السلطاني من قلعة دمشق إلى سوق الخيل، وحضر نائب السلطان والموكب وحضر القضاة والأعيان والقراء والأئمة ومن جرت العادة لحضورهم، وكان قد رسم نائب السلطنة لوالي البر والبلدان يعرضوا لابسين العدد والجنود، وأن يلعب مماليكهم بالنفط...وداروا به حول البلد وتهيأ الحجاج في شراء ما يحتاجون إليه"(ابن الجزري,

١٩٩٨,ج٢,ص١١٠)، وقد أستغل المماليك هذه المناسبات الدينية من أجل كسب ود الناس(ضاحي و مزبان, ٢٠٠٩, ص٨٤) .

ومن الاحتفالات الدينية الكبرى التي كانت تقام في بلاد الشام، أيام دولة المماليك البحرية ويشارك فيها الناس هو الاحتفال بليلة المعراج النبوي الشريف، إذ يصف ابن الجزري هذا الاحتفال وكيفية حضوره في دمشق قائلا: "ليلة المعراج النبوي، عمل في صحن جامع دمشق...الميعاد وحضره أكثر مقرئين دمشق...وحضر الجمع الكثير من الناس، وأشعلت لهم القناديل مثل ليلة نصف شعبان وقرأوا ختمة كاملة ومرت ليلة طيبة بالقراءة والذكر وإنشاد مدائح رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) لله الحمد والمنة على ذلك" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٧٥)، وهي ليلة مشهورة منصوص عليها في القرآن الكريم ويحتفل فيها المسلمون في كل أرجاء المعمورة (أبي شامة, ١٩٩٧,ج٣,ص٢٣١)

ثانياً: الاعياد:

إلى جانب تلك الاحتفالات كان هناك أيضاً الاعياد الرسمية في الدولة، وهما عيدي الفطر والأضحى، وهي أعياد يشارك في إحيائها جميع المسلمين في البلاد الإسلامية، وكان أهل الشام في هذه الاعياد يحتفلون ويلبسون ملابس جديدة، ففي عيد الفطر يستعد أتم الاستعداد، ففيه يتم أعداد الحلوى وفي صباح يوم العيد يصلي الناس صلاة العيد ويتبادلون فيما بينهم التهاني والتبريكات ويستمر هذا العيد لمدة ثلاثة أيام(يخلف, ٢٠١٨,ص٦٧-٦٨) ، وعيد الفطر يعتمد على رؤية الهلال فإذا ثبتت رؤيته من قبل ناس تتم تزكيتهم بعدها يعلن القضاة الأقطار وتدق تباشير العيد على أبواب دور الأمراء (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٧٧).

ومن الاعياد التي احتفل بها أهل الشام عيد الاضحى المبارك، الذي يكون بعد يوم من صعود الحجاج عرفة (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢, ص٢٧٦)، ومثله مثل عيد الفطر يصلي الناس صلاة العيد، ويستمع الناس لخطبة العيد، وفيه تذبح الاضاحي، ويقدم الناس للفقراء ويتبادل الناس التهاني والتبريكات، وزيارة المقابر وتبادل الزيارات (يخلف, ٢٠١٨, ص٦٨)، وفي يوم عرفة يتم الاعلان عن بعض الامور المهمة، ومنها الافراج عن بعض المتهمين تقديراً لهذا اليوم، ومن ذلك ما حدث سنة (٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) إذ يصف لنا أبن الجزري ذلك قائلاً: "وأخبر أن السلطان عز نصره، أفرج عن علم الدين الجاولي، وعن أمير فرج بن قرا سنقر...وكان الافراج عنهم يوم عرفة" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٢٧٧)، ومنها أيضاً الافراج عن أبي بكر الزرعي أمام الجوزية (ابن الوردي, ١٩٩٦,ج٢,ص٢٨٠)؛ إذ يذكر ابن الجزري ذلك قائلا:" أحضروه إلى عند قاضي القضاة فاستتابه، وقبل توبته وأعطاه مائتي درهم..." (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٢٧٧).

ومن العجيب أن هناك عيد في بلاد الشام لا يحتفل به أهل الشام وليس من عادتهم ويشعرون بالإزعاج منه ويقتصر هذا الاحتفال على المصريين والعساكر المصرية المتواجدين في بلاد الشام، ويذكر ابن الجزري ذلك قائلاً"وفي رابع عشر رمضان عملوا عسكر مصر بدمشق عيد النيروز كعادتهم في الديار المصرية، وتأذى جماعة من أهل دمشق، منهم، فإن أهل دمشق مالهم عادة بذلك" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١١٥-١١٦).، ولم يبين لنا أبن الجزري نوع الأذية التي تعرض لها بعض الناس من هذا العيد، ومع أن هذا العيد لا يعدزى من الاعياد الاسلامية الاساسية، لكن يحتفل به بعض الناس في معظم البلاد الاسلامية .

ثالثاً: الأفراح:

تميزت الحياة العائلية في بلاد الشام بالاحتفال في الاعراس وأحياء الافراح العائلية، وكان للزواج تقاليد معينة التزم بها سكان بلاد الشام، وتسبق مرحلة الزواج مرحلة الخطبة وتحديد المهر بين أهل العريس والعروس، وبعد الاتفاق بين الطرفين يتم تبادل الهدايا وبعدها يتم تحديد موعد الزواج، ومع أن ابن الجزري لم يذكر لنا تفصيلات تخص العادات والتقاليد الخاصة بهذا الجانب، لكنه سجل لنا في مصنفه المذكور بعض حالات الزواج التي تمت بين بعض الاسر في بلاد الشام، ومن ذلك مثلاً ما ذكره في أخباره عن زواج الصدر جمال الدين ابن القلانسي(ت٧٣١هـ/١٣٣٠م) أحد كبار رجال دمشق الذي شغل عدة مناصب في دمشق منها قضاء العسكر ووكالة بيت المال(ابن قاضي شهبة, ١٤٠٧,ج٢, ص٢٥٢) من بنت القاضي جمال الدين ابن صصري احد قضاة الشافعية في دمشق (ابن السبكي, ١٤١٣,ج٩,ص٢٠)، وقد عبر ابن الجزري عن هذا الفرح قائلاً: "وقد جمع الله بينهم في خير وعافية"(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٢١)، وما ذكره أيضاً عن عقد قران الشيخ برهان الدين(ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م) أحد رجال علوم الحديث في دمشق (ابن قاضي شهبة, ١٤٠٧,ج٢,ص٢٤٢) على بنت القاضي شهاب الدين الخوي معبراً عن ذلك بقوله :"وكان عقداً حفلاً حضره أكابر الناس والعلماء" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٢١)، المهم يعد الزواج من الافراح العائلية المهمة في بلاد الشام .

ثالثاً: الأسواق:

من ضمن الأمور التي وردت في كتاب ابن الجزري وتخص المجتمع الشامي الاسواق في بلاد الشام ، وكانت هذه الاسواق تحتفل في أيام المناسبات الدينية وقدوم السلاطين والأمراء، وتزين بالفوانيس والشموع، فمثلا ذكر ابن الجزري في حوادث سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) سفر السلطان الملك الاشرف من دمشق للديار المصرية قائلاً: "وكان قد رسم لأهل الأسواق بدمشق وظاهرها أن كل صاحب حانوت يأخذ بيده شمعة ويخرج إلى ظاهر البلد، وعند ركوب السلطان يشعلها وخرج كل أهل الأسواق مع عريفهم، وبات أهل البلد ظاهر دمشق لأجل الوقيد والفرحة" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص١١٨)، فضلا عن ذلك كانت هذه الاسواق تتأثر بارتفاع وانخفاض الاسعار، ومن اسواق الشام أسواق دمشق؛ إذ تحدث ابن جزري عن ارتفاع سعر الخيار فيها، ووصف أهل دمشق قائلا: "دمشق مجنونة، وأهلها أجن منها، لا ينضبط فيها سعر ولا يحبوا يشتروا الشيء إلا غالي"(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص٦٤-٦٥)، وهناك العديد من الاسواق التي ذكرها ابن الجزري ومنها سوق الخيل (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٠٦) وهو أحد الاسواق المهمة الموجودة في ظاهر دمشق (الكتبي, ١٩٧٤,ج١,ص٢٤٤) وسوق العطارين ويظهر أن هؤلاء العطارين كانت لهم خبرة طبية وكانوا يبيعون بعض الاعشاب التي تساهم في شفاء المرضى، ففي حوادث سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) يخبرنا أبن الجزري عن انتشار مرض الحمى والسعال في بلاد الشام بشكل واسع واستمراره لمدة شهر كامل، مبيناً موقف العطارين من هذا المرض بقوله: "أن المرض كثير وأن العطارين بقوا ثلاثة أيام وثلاث ليالي لم يغلقوا دكاكينهم من كثرة عمل المغالي وبيع الأشربة والأدوية وغير ذلك، واتصل المرض إلى حماه وحمص ودمشق وبعد الى البلاد القبلية من أعمال حوران والقدس ونابلس وغيرهم..." (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٢٣)، ومن الاسواق التي كان الناس بحاجتها أيضاً سوق السراجين وهم الذين يهتمون بصناعة السروج وآلات الجند؛ إذ ذكر ابن الجزري في وفيات سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) مع الاكابر والاعيان أحد البارعين فيها وهو معين الدين عبد الرحمن قائلا: "كان يعاني صنائع السروج وآلات الجند وغير ذلك" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٦٦)، ومن الاسواق الأخرى المشهورة سوق الحرير الذي كان أحد الأسواق المهمة في دمشق، فضلا عن كان هناك سوق للتجار مشهور في دمشق يعرف بسوق علي (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٧٧)، ومن الاسواق المشهورة في دمشق أيضاً سوق يعرف بسوق الرماحين، ومع أن هذه الاسواق تختلف من مدينة إلى أخرى، لكن يظهر من خلال

الأخبار التي أوردها ابن الجزري أن هذه الاسواق مرتبه حسب الاختصاص في العمل فهي لم تكن عشوائية، وتميزت هذه الأسواق بوجود الجوامع لأداء الصلاة (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٢٥)، وكان بعض اصحاب الصنائع في الاسواق يلقبون بأسماء مهنهم التي يمتهنونها مثل الصائغ والفراء والقطان والصيرفي والكحال(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٣٩-١٦٧)، وإلى جانب هذه الأسواق توجد القيساريات وهي متنوعة ومنتشرة في كل المدن الشامية وبالخصوص دمشق ومن هذه القيساريات التي ذكرها ابن الجزري قيسارية الشرب ولم يزودنا بأي معلومات أخرى تخص هذه القيسارية(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص١٥٣) ومنها أيضاً قيسارية القطن التي أنشأها الملك المعظم بن العادل بمرسوم سلطاني فأشترها الأمير سيف الدين طغجي(ت٦٩٨هـ/١٢٩٨م) أحد مماليك الملك الأشرف خليل(ابن تغري بردي, د.ت,ج٨,ص١٨٣)، وأجبر تجار الحرير بالانتقال اليها، وأخلاء سوق الحرير، وقد وصف ابن الجزري السوق بعد أخلائه قائلاً: "وبقي سوق الحريريين بطال كأنه بطن حمار"(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص١١٩)، ومن القيساريات المشهورة بمحلاتها ودكاكينها أيضاً قيسارية الفرش الفراء(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص٢٨٤)، وفضلاً عن أصحاب الدكاكين كان يعمل في هذه الأسواق السماسرة والدلالين (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٣٤١).

وهذه الاسواق عادة ما تتعرض للاحتراق ويتضرر بسبب ذلك العاملين فيها من التجار واصحاب الدكاكين، ومثال على ذلك حريق سوق الفرائين إذ يصف أبن الجزري هذا الحريق وأضراره قائلاً:"وقع حريق عظيم في سوق الفرائين بدمشق، كان مبدأه من دكان قطان في طريق قيسارية الفرش...،وأمتد إلى سوق الفرائين، وإلى القيسارية الجديدة وقيسارية المارستان، وبعض دكاكين سوق علي، وسلم الله تعالى منه قيسارية الفرش، والمسجد المعلق، والخواصين، وكان من أول الليل، وعجزوا عن طفيه، وبقيت النار تعمل إلى يوم الأحد، وأحترق للفر ائين والساكنين بالقيساريتين شيئاً كثيراً، وبعض التجار بسوق الرماحين...وقام والي البر هو ومماليكه واعوانه في حفظ الأسواق القريبة (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج١,ص٢٦١)، وقد وصف أبن كثير هذا الحريق بأنه قد كان حريق عظيم احترقت في الكثير من الدكاكين (ابن كثير, ١٩٨٦,ج١٤,ص١٤٣) ومن خلال ما تقدم نلحظ أن اسواق بلاد الشام تشكل جزء من حياة السكان اليومية بوجود الجوامع والحمامات التي كان يقصدها الرجال والنساء ومن مختلف الطبقات الاجتماعية، وكان السوق والدخول أليه مرتبط بحياتهم اليومية.

خامساً: تشييع الجنائز وإقامة المأتم:

من العادات والتقاليد التي ثير الدهشة في المجتمع الشامي، وقد تحدث أبن الجزري في وفياته بشكل تفصيلي عن كيفية التشييع واقامة العزاء الذي يستمر عادة لمدة ثلاثة أيام وتتلى ختمات القرآن الكريم في المأتم وبخاصة إذا كانت الشخصية المتوفاة من الشخصيات المعروفة وفي العادة يبدأ التشييع من الجامع بعد تغسيله ويستمر حتى يوضع في لحده، ولم يقتصر أبن الجزري على ذكر التشييع وكيفيته فقط، وانما يذكر الصفاة التي كان يتمتع بها ومنزلته في المجتمع، فمثلاً في وفيات سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) ذكر وفاة الشيخ ابن سباع الفزاري فتحدث عن كيفية تشيعه مبيناً الصفات التي كان يتمتع بها في حياته؛ إذ يقول:"وشرع في غسله من صلاة الظهر، وحمل إلى الجامع المعمور، فتقدم في الصلاة عليه قاضي القضاة شهاب الدين بن الخويي الحاكم الشافعي، وامتد الخلق بين يدي نعشه، وحصل الزحام، وحمل على رؤوس الفقهاء، وازدحم الناس عليه لحمل تابوته، إلى أن وضع على باب جامع الجراح، وصلى عليه ثانية الشيخ زين الدين الفارقي، ولم يرفع من هناك إلا بمشقة شديدة من الزحام عليه إلى تربة والده بمقبرة باب الصغير، فوضع في لحده، وتفرق الناس بعد أذان العصر، وعمل له العزاء بكرة الثلاثاء...وتليت الختمات من أجله، فإنه كان شيخ الوقت، وحسنة الزمان وإمام العصر" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٧٢)، بينما عندما ذكر وفاة الطبيب ابن طرخان السويد أشار إلى منزلته

وفضله وعلمه ومصنفاته التي كتبها، لكنه في النهاية انتقده قائلا: "كان قليل الصلاة وعنده انحلال كثير في العقيدة، ميذوق اللسان، وكان قد انتهت أليه رئاسة الطب في دمشق" (ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص٧٣).

ولم يقتصر ابن الجزري على وفيات الأعيان المشاهير فقط وإنما تطرق إلى وفيات المشاهير من النساء من الشيخات وزوجات الفقهاء، لكن يبدو أن التشيع أقتصر على الرجال فقط، لأنه في تدوينه لوفياتهم اقتصر على ذكر وفياتهم والصلاة عليهم في الجامع، ومكان الدفن، وتوضيح مكانتهن بين ابناء المجتمع ومنزلتهن العلمية، ومن ذلك مثلا ما جاء في وفيات سنة (٧٢٦هـ/١٢٩١م) عن بنت الشيخ شمس الدين محمد القوي (ت٦٩٩هـ/١٢٩٩م) أحد شيوخ الحنابلة (الحنبلي, ١٤٠٦,ج٥,ص٤٥٢)؛ إذ قال ابن الجزري: "توفيت المرأة الصالحة أم عبد الله زينب بنت الشيخ الإمام شمس الدين بسفح قاسيون، ودفنت عند والدها بوادي العظام، بعد أن صلى عليها بالجامع المظفري، وكانت امرأة صالحة رحمها الله"(ابن الجزري, ١٩٩٨,ج٢,ص١٤٤)، ومن خلال ما تقدم يمكن أن نقول أن مظاهر تشييع الجنائز في المجتمع الشامي يغلب عليها تأثير المراسيم الدينية الاسلامية بشكل كامل .

الخاتمة والاستنتاجات:

١ـ يعد كتاب تاريخ ابن الجزري من المصنفات التاريخية ذات القيمة التاريخية، نظراً لكمية المعلومات التي دونها مؤلفه فيه عن الأحداث التاريخية وكمية تراجم المتوفين الذين عاصرهم وتحدث عنهم .

٢ـ ثم أن قيمة المعلومات التي قدمها المؤلف عن واقع المجتمع في بلاد الشام، أيام حكم المماليك البحرية من خلال مشاهدته تعطينا صورة واضحة عن طبقات المجتمع وطبيعته وفهم بعض الأمور المرتبطة بحياة الناس اليومية .

٣ـ استعرض ابن الجزري الاحتفالات التي شهدها المجتمع الشامي أيام المماليك البحرية، مبيناً طبيعة هذه الاحتفالات، فضلا عن ذلك تحدث عن الاعياد والافراح التي كانت تقام في المجتمع الشامي .

٤ـ تشكل الاسواق في بلاد الشام جزء من حياة السكان اليومية، فضلاً عن أثرها في الاحتفالات التي تقام في بلاد الشام .

٥ـ من العادات والتقاليد الموجودة في المجتمع الشامي، التي تحدث عنها أبن الجزري في تراجمه بشكل تفصيلي هو التشييع واقامة العزاء على الميت .

المصادر

أبي شامة, ش. ا. ع. ا. (١٩٩٧). *عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية* (ج٣). مؤسسة الرسالة.

ابن الجزري, ش. ا. ا. ع. ا. (١٩٩٨). *تاريخ حوادث الزمان وانبائه ووفيات الاكابر والاعيان من ابنائه،تحرير عمر عبد السلام تدمري*. المكتبة العصرية.

ابن السبكي, ت. ا. ب. ع. (١٤١٣). *طبقات الشافعية الكبرى* . د.م. هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن الوردي, ز. ا. ع. ب. م. (١٩٩٦). *تاريخ ابن الوردي* (ج٢). دار الكتب العلمية.

ابن تغري بردي, ا. ا. ج. ا. (د.ت). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب.

ابن قاضي شهبة, ا. ب. ب. ا. (١٤٠٧). *طبقات الشافعية* (ج٢). عالم الكتب.

ابن كثير, ا. ا. ا. (١٩٨٦). *البداية والنهاية* . د.م (ج١٣). دار الفكر العربي.

الحنبلي, ع. ا. ب. أ. (١٤٠٦). *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. دار ابن كثير.

الصفدي, ص. ا. ب. أ. (٢٠٠٠). *الوافي بالوفيات*. دار احياء التراث.

القلقشندي, ا. ب. ع. (١٩٨٧). *صبح الاعشى*. دار الفكر.

الكتبي, ش. ص. ا. م. (١٩٧٤). *فوات الوفيات*. دار صادر.

المقريزي, ا. ا. أ. ب. ع. (١٩٩٧). *السلوك لمعرفة دول الملوك* (ج٣). دار الكتب العلمية.

المقريزي, ا. ا. أ. ب. ع. (٢٠٠٧). *إغاثة الأمة بكشف الغمة*. د.م. عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

النجار, إ. م. ا. (د.ت). *المعجم الوسيط*. د.م. دار الدعوة.

ضاحي و مزبان, فاضل جابر, إ. م. (٢٠٠٩). *الرأي العام في عصر المماليك (٦٤٨هـ ٩٢٣م)*. دار الضياء للطباعة والنشر.

عويد, ش. ي. (٢٠٢٥). رؤية المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) النقدية للمرويات التاريخية في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر . *Journal of College of Education/Wasit*, *60*(2), 193.

ناصر الدين, م. ب. ع. ا. (١٩٩٣). *توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم* (ج٣). مؤسسة الرسالة.

يابر, ش. ي. (٢٠٢٦). مكانة التاريخ في الإعلام السياسي لدولتي المماليك والمغول. *مجلة واسط للعلوم الانسانية*, ٢٢ (١), ٤٢٤–٤٣٧.

يخلف, ن. (٢٠١٨). *لحياة الاجتماعية في بلاد الشام خلال العصر المملوكي (٦٤٨ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ـ ١٥١٧م)." مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ*. جامعة ٨ ماي ١٩٤٥قالمة.